

## الباب الرابع

### مجالات التوفيق بين الدين والفلسفة

إذا كان التوفيق عند « رويس » لا يعنى رد الدين إلى الفلسفة أو الفلسفة إلى الدين أو إستبدال أحدهما بالآخر ، وإنما بيان كيف يمكن قيام التوافق بينهما مع التأكيد على أهميه كلاهما للتعبير عن جوانب الحياة الإنسانية (١) . وإشباع الجوانب الروحية للإنسان . فإن السؤال الذي يفرض نفسه ، ما هى مجالات التوفيق بين الدين والفلسفة ؟ وهل جاءت هذه المجالات معبرة عن روح التوفيق ، أم عن روح وسيطرة أحد الطرفين اللذين يتم التوفيق بينهما . بمعنى هل جاء التوفيق لصالح الفلسفة أم لصالح الدين ؟ فتستوعب الفلسفة الدين ، أم يستوعب الدين الفلسفة ؟ فإذا كان التوفيق لصالح الفلسفة فهل يمكن إتساق مفهوم المطلق الذى قالت به المثالية مع مفهوم الله ؟ وهل إتسق نظرة الإنسان الفلسفية للطبيعة مع كونها من مخلوقات الله ؟ أيمكن أن تقدم الفلسفة المثالية حلاً لعلاقة الإنسان بالله يحقق لإنسان حريته وإستقلالة ، بالرغم من كونه أحد مخلوقات الله ، ويخضع للإرادة الإلهية ؟ وإن جاز وكان التوفيق لصالح الدين ، جاء لصالح الدين الطبيعى أم الدين المسيحى ؟ بمعنى نشر لدين المثالية ، أم إعادة تأويل وإحياء للمسيحية ؟

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy, p.8

(١)

## الفصل الاول

### المطلق

يعد المطلق « أولى موضوعات أو مجالات التوفيق بين الدين والفلسفة عند « رويس » ولئن كان « رويس » قد وضع كتاباً يتناول « مفهوم الله » ، إلا أنه لم يتبع في دراسة مفهوم الله أو المطلق ، المنهج التقليدي في فلسفة الدين ، فيعرض لأدلة وجوده وصفاته وأوصافه في صورته مرتبة ، أو في دراسة مستقلة . وإنما جاءت أدلة وجوده وأوصافه منتشرة في أعماله الفلسفية ، الأمر الذي يتطلب البحث بين أفكاره ومؤلفاته عن هذه الأدلة وتلك الصفات . ومحاولة تصنيفها وإخراجها بصورة متكاملة ، تحقق فهماً لكيفية تم التوفيق بين الفلسفة والدين عند « رويس » من خلال دراسته لمفهوم « المطلق » .

#### أولاً : أدلة وجوده

##### أ - الدليل المعرفي

يستند « رويس » في هذا الدليل على نظرية في المعرفة ، وعلى طبيعة العمليات الفكرية ، والأحكام الصائبة والخاطئة . لإثبات وجود الله . ولم يعتمد « رويس » في هذا الدليل على مناقشة معنى الحقيقة ، أو المقصود بالصواب وبالأحكام الصائبة ، وإنما نهجاً جديداً ، فبدأ بالتساؤل عن معنى الخطأ ، وعن طبيعته وعن المقصود بالأحكام الخاطئة . ويرى « رويس » أنه ليس هناك حاجة لإثبات وجود الأخطاء ، فالخطأ قائم وواضح في تجارب الحياة اليومية ، وإذا ما تم الشك في ذلك ، فإن الشك نفسه يثبت وجود الأخطاء ، وإنها ممكنة ، ويفترض وجود الشروط المنطقية التي تجعل الخطأ ممكناً . ولكن السؤال الذي يفرض نفسه ما هو الخطأ ذاته وما المقصود به ؟ . الواقع أن هناك ثلاث تعريفات للخطأ ، الأول منها يرى أن الخطأ أو الحكم الخاطيء هو الرأي الذي ينفر منه

الفرد ويكرهه ولا يحبه ، ولكن ما الذى يجعل الحكم الخاطيء مكروهاً ، قد يقال بأنه الحكم الذى لا يحبه أو يقبله صاحب « الرأى السليم (١) » . ولكن من هو صاحب « الرأى السليم » ، قد يقال بأنه « الشخص المثالى » ، ولكن من هو « الشخص المثالى » ، قد يقال بأنه الشخص الذى يتصوره الإنسان ، ولكن ما الذى يجعل الفرد يتصور « الفرد المثالى » فى هذه الحالة تصوراً صحيحاً . الواقع أن هذا التعريف للخطأ يقع فى الدور المنطقى . وأما التعريف الثانى فيعرف الحكم الخاطيء بأنه الحكم الذى لا يتفق مع موضوعه ، ولكن ما هى العلاقة المفترضة بين الحكم وموضوعه ؟ من الواضح أن الحكم لا بد أن يختار الموضوع ، الذى يريد أن يتطابق معه ، من بين الموضوعات . أى يجب أن يقصد الموضوع أولاً ، ولكن جوهر « القصد » يؤكد أنه لا بد من معرفه ما يتم « قصده » أو إنتقائه ، معنى ذلك ، أن كل ما يقصد لا بد أن يكون معروفاً للقاصد ، ولما كان موضوع الحكم الخاطيء لا بد أن يكون معروفاً أيضاً ، فإن معنى ذلك أن الإنسان يخطأ فيما يعرفه فقط ، ويستحيل أن يخطأ فيما يكون مجهولاً تماماً (٢) . وأما التعريف الثالث ، فإنه يرى بأن الأحكام لا تكون صائبة أو خاطئة خارج ذاتها ، بمعنى أن الحكم يمكن أن يتفق أو لا يتفق مع موضوعه الحاضر فى الذهن فقط ، أو داخل نطاق الأفكار وبالتالي فالمسألة نسبية . والواقع أن هذا التعريف متناقض مع نفسه ، فإذا كان الحكم لا يكون صائبا أو خاطئا خارج ذاته ، فهل يعد هذا الحكم نفسه صادقا ؟ .

وينتهى « رويس » بعد عرض هذه والتعريفات بأنه إذا تم تحليل سبب تناقض ، وعدم إتساق ، هذه التعريفات المختلفة لطبيعة الخطأ ، بل وإستحالة مجموعة من الأخطاء فى ضوئها ، يتضح أنها تستند على مسلمتين خاطئتين ، الأولى تفترض الوجود المستقل للأفراد ، وعدم وجود صلة أو وحدة تربط بين أفكارهم ، والثانية تفترض تتابع الأحداث الزمنية وإنفصالها وعدم وجود ترابط بينها . ويرى « رويس » أنه إذا تم إسقاط هاتين المسلمتين ، والقول بوجود « فكر شامل » يحوى كل الأفراد وموضوعاتهم وأحكامهم ، ويكون فى نفس الوقت ، كل التتابع الزمنى حاضراً أمامه فى لحظة واحدة ، فإن الخطأ يمكن تعريفه

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy p. 391.

(١)

Ibid ., p. 400.

(٢)

ويصبح ممكناً باعتباره عنصراً أو لحظة من حقيقة أعلى تعترف به وتعتبره جزءاً منها .  
وإما أنه لا وجود لما يسمى خطأً أو أن وجوده يعد متناقضاً ، وإما توجد وحده لا متناهية  
« لفكر شامل » تكون كل الحقائق الفعلية والممكنة حاضرة أمامه فى لحظة واحدة (١) .  
ويبرهن « رويس » على وجود هذا الفكر الشامل ألامتناهى كما يلى :

فقولاً : إذا كان الخطأ موجوداً ، معنى ذلك أن هناك إمكانية لقدر لا محدود من  
الأخطاء الممكنة ، وإمكانية لقدر لا محدود من الأحكام الصحيحة المقابلة لهذه الأخطاء ،  
وبالتالى لا بد أن تكون الأحكام الخاطئة والصحيحة ، أحكاماً لا متناهية ، وبالتالي لا بد أن  
يوجد فكر شامل لامتناهى يحوى هذه الاحكام كلها .

ثانياً : إذا كان كل حكم خاطئ يتضمن « موضوعاً » مقصوداً ، يكون مستقلاً  
ومنفصلاً عن الحكم ، ويكون فى نفس الوقت موضوعاً للحكم الصحيح المقابل لهذا الحكم  
الخاطئ ، فمعنى ذلك أن الموضوع يكون موضوعاً لحكمين مختلفين ، ولكن كيف يكون ذلك  
وهما فكران مستقلان ، ولكل فكر موضوعه وأحكامه المستقلة ، إذن لا بد أن يكون كلا  
الحكمين أى الحكم الصائب والحكم الخاطئ وموضوعهما ، أجزاءً من فكر شامل لا  
متناه ، وبالتالي لا بد من وجود فكر شامل أزلى لا متناه ، حتى يمكن وصف الأحكام  
بالصواب أو الخطأ .

وثالثاً : طالما أن الخطأ لا يكون بالنسبة للموضوعات فقط ، وإنما بالنسبة للموضوعات  
والعلاقات بينهما ، فلا بد لهذا الفكر من المعرفة الكاملة بالموضوعات والعلاقات بينهما ، ولا  
يتحقق له ذلك إلا بوجود وحدة عقلية مطلقة تشكل الموضوعات وعلاقاتها فيها فكراً  
واحداً مفرداً (٢) .

وبذلك قد ينتهى « رويس » بتعريف « الخطأ » ، بأنه يعنى فكراً ناقصاً ، يكون معروفاً  
للفكر الأعلى الذى يشمله مع موضوعه المقصود ، ويعرف فشله فى تحقيق الغرض الذى

Ibid ., p. 424

(١)

Ibid ., p. 425

(٢)

يقصده ، والذي يكون متحققا وكاملاً في هذا الفكر الأعلى . وبدون هذا الفكر الأعلى اللا متناهي ، لا يكون للحكم الخاطيء موضوع خارجي ، ولا توجد أحكام خاطئة على الإطلاق .  
 ولما كان الخطأ موجوداً ، وهناك إمكانية لا متناهية للخطأ ، وإمكانية مستمرة للصواب المقابل له وكانت الأحكام صائبة أو خاطئة ، تتعلق بالأفراد والموضوعات ، فإنه لا بد من وجود « فكر شامل » لا متناه ، يشمل جميع الأحكام والموضوعات والأفراد ، وإذا لم يكن هناك وجود لهذا الفكر الشامل اللامتناه ، فلا وجود لعقول مستقلة أو لموضوعات أو لأحكام صائبة أو خاطئة (١) .

### ب - الدليل الأخلاقي

دائماً ما يستند هذا الدليل لإثبات وجود الله ، على وجود القيم الأخلاقية والمثل العليا ومصدرها ، أو على إعتبار وجود الضمير الأخلاقي دليل على وجود الله . فإذا كان هناك مثل أخلاقية ، أو ضمير أخلاقي لدى الإنسان ، فلا بد من علة لوجود هذه المثل أو هذا الضمير ، فإله موجود وخير ، وعلة وجود المثل العليا ، وذلك الضمير . والحيقية أن « رويس » يضع تصوراً جديداً لهذا الدليل ، أو صيغة جديدة له ، وأن كان في نفس الوقت يستند على الدليل المعرفي وإمكانية وجود الخطأ كدليل على وجود الله . فلا يعتمد « رويس » على وجود الخير أو المثل العليا ، وإنما يعتمد على ملاحظة الحياة الأخلاقية وجوانبها ، خاصة « مسألة وجود الشر » . وإعتبر أن وجود الشر ، لا يعد دليلاً على عدم خيره العالم ، وإنما يعد دليلاً على وجود « الفكر الشامل » ألامتناه فملاحظة الإنسان لوجود الشر تعنى القدرة على تصور الخير الكلي المطلق . ويتساءل « رويس » من أين جاء الإنسان بهذا التصور . ولا بد من وجود فكر شامل لا متناه ، يعرف كل الشر والخير ، ومن يرفض وجود هذا الفكر اللامتناهي الشامل ، فإن رفضه يتضمن خطأ الحكم بوجوده ، ولكي تكون الأحكام صحيحة أو خاطئة ، فلا بد من وجود حقيقة أعلى تستطيع الحكم بوجوده (١) ، لذلك لا بد أن يكون هذا الفكر الشامل العارف لكل الخير والشر موجوداً .

ومثلما إحتاجت إمكانية وجود الخطأ إلى ضرورة وجود الفكر الشامل ، وإستطاع الإنسان إستنتاجه من ملاحظة فكره الخاص ، الذى يحوى العناصر الخاطئة والصائبة فى فكر واحد شامل ، فإن إمكانية وجود الشر ، تتطلب ضرورة وجود هذا الفكر الشامل أيضا . فطالما أن وجود الشر يتطلب تمييزاً حقيقياً بين الخير والشر ، فلا بد من وجود فكر شامل لا متناه يعرف كلاً من الخير والشر ، ويستطيع الإنسان أن يستدل على ذلك من مراقبة « طبيعة الفعل الأخلاقى » فلكى يوصف الفعل بالأخلاقية ، لا بد أن يحوى بداخله الشر مهزوماً أو الإرادة الشريرة مغلوبة على أمرها ، كذلك بالنسبة لوجود الشر فى العالم ، فإنه يعد دليلاً على وجود فكر مطلق ، ولا بد أن يتصف هذا الفكر بالخيرية المطلقة (٢) . والحقيقة أن « رويس » يكمل ويؤكد هذا الدليل الأخلاقى على وجود الفكر الشامل ، بحجة برجماتية ، بمعنى طالما أن الإعتراف بوجود هذا العقل الشامل أو القاضى الخير ، يؤدى إلى منفعة نفسية وإجتماعية ، فمن الأفضل الاعتراف بوجوده . فشعور الإنسان بعدم القدرة على تحقيق مثاله الإخلاقى غالباً ما يدفعه إلى الشك ، وقد يأمل فى تحسن الأوضاع الإجتماعية ، التى تمكنه من تحقيق مثله الأعلى . والواقع أن فى كلتا الحالتين حالة الشك ، أو حالة رؤية الطريق لتحقيق المثل الأعلى ، فإنه تكون هناك حاجة لوجود العقل اللامتناهى ، حيث يحصل الإنسان منه على تأكيد بصحة وحقيقة مثله العليا ، وبأن مثله الأعلى سوف يتحقق مهما طال الزمن ، وبالتالي يشعر الإنسان بنوع من السلوى والعزاء ، فى ظل إيمانه بوجود هذا القاضى الأعلى ، فالمطلق أو القاضى الأعلى لا بد أن يكون موجوداً .

### ج - الدليل الكونى

يستند هذا الدليل لإثبات وجود الله على وجود العالم وملاحظة ما يوجد فى العالم من جمال ونظام ووحدة ، ويأتى بحجة يستند فيها على أن معرفة العالم وإدراكه أو حتى الحديث عنه لا يمكن أن يتم بدون وجود « الفكر الشامل » اللامتناهى . فإذا ما تحدث فرد ما مثلاً عن وجود الأفراد أو الأشياء الكائنة فى الخارج وعن صفاتهم ، أو عن الأشياء البعيدة فى

Ibid ., p.445

(١)

Ibid ., p.466

(٢)

المكان فى الزمان كأحداث الماضى أو المستقبل ، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، إلا إذا كانت أفكاره والموضوعات التي يتحدث عنها أو الفكر وموضوعاته أجزاءً من فكر واحد واسع يشملهم جميعاً (١) . ولا بد أن يكون هذا الفكر الواحد الشامل موجوداً واقعياً . فإذا تحدث الفرد مع جاره مثلاً ، فإنه لا بد أن يكون هو وجاره جزءاً من فكر واسع ، وإلا لن يستطيع مخاطبة جاره ، الموجود فى الخارج . إن الفرد والآخريين ، وكل حقائق الطبيعة أجزاء من الذات الواسع ، وإلا لن يستطيع أى فرد ، حتى أن يقصد الحديث عن أى من هذه الموضوعات التي توجد فى الخارج . فعندما يعتقد إنسان ما ، أنه يعرف حقيقة ما ، تكون موجودة فى الفكر، أو فى الخارج ، فما التبرير الذي يتسند عليه ؟ . الإجابة الوحيدة أنه إذا وجد فكر آخر ، أى ملاحظ خارجى ، وقارن فكرته مع الواقعة المشار إليها ، يدرك الاتفاق بين فكرته والواقعة ، أى لا بد من وجود ملاحظ متوسط بين فكره ، والموضوع المقصود من الفكر والواقعة فى الخارج . أى « ملاحظ » يشمل ذات الفرد اللحظية والواقعة الكائنة هناك فى الداخل أو فى الخارج ، ويتأمل ويفكر فى العلاقة بينهما ، ويحكم بأنها علاقة حقيقية ، ولا بد أن يعتمد هذا « الملاحظ » على الفكر والوعى الذاتى . لذلك أن يعتقد الفرد بمعرفته لشيء ما ، يعنى إعتقاده فى علاقته مع الحقيقة ، من الإعتقاد فى وجود ذات « ملاحظ شامل » ، يحوى أفكاره والموضوعات التي يفكر فيها (٢) .

إن طالما أن هنالك إعترافاً مستمراً بوقائع موجودة ، وهناك حواراً قائماً بين الأفراد على وجودها ، فإنه لا بد أن يكون الفكر الشامل الواسع موجوداً . حقيقة أنه ليس عليه للكون أو خالق للحياة ، ولا تثبته أى واقعة حسية أو فكرية معينه من وقائع العالم ، ولا يوجد فى الزمان أو المكان ولا يضع أى عوامل خارجية ، وليس فرضاً من فروض العلم التجريبي ، ولكنه الأكثر واقعية ، ووجوده أكيد ، ويحوى كل الوقائع والعقول والأفكار ويتعالى عليها ، ويذكره الفرد فى كل قضية يقولها ، ولا يستطيع الفرد أن يحيا بدونها (٣) . وإذا ما قام إعتراض بأن وجود هذا « الذات الواسع » مجرد إمكانية ، وليس وجوداً حقيقياً ، فإن الإمكانيات الفارغة غير موجودة ، لأن الممكن يكون حقيقة لفرد ما . وإذا ما قال قائل بأن

J.Royce : The Spirit of Modern Philosophy , p. 372

(١)

Ibid ., p. 375

(٢)

Ibid., p. 373

(٣)

هناك نفوساً وموضوعات عديدة ولا يوجد بالضرورة « ذات واحد واسع » ، فإن هذا القول قد يحكم عليه بالصواب او الخطأ ، ولا يستطيع ان يرى الكل ، ويقوم بالحكم ، الا ذات واحد يرى كل النفوس والاشياء ويحكم عليها ، لذلك لا بد ان يكون هناك ذات واحد واسع يحوى الاشياء والافراد جميعاً .

والحقيقة أن الدليل المعرفى الذى وضعه « رويس » ، ويثبت به وجود الله من وجود الأخطاء بإعتبار وجوده عبارة عن الشروط المنطقية للخطأ ، يعد دليلاً جديداً إلى حد ما ، فمن النادر أن يتم التوقع ، بأن يكون وجود الخطأ دليلاً على وجود الله . ولكن من جهة أخرى لا يخلو هذا الدليل من بعض جوانب النقض ، فإذا كان الخطأ ضرورياً لاثبات وجود الله ، فإن الخطأ ذاته ، مسألة مؤقتة وليست ضرورية ، فليس بالضروره أن يخطأ الإنسان دائماً ، ولذلك يعتبر الدليل من نوع التذليل المؤقت والنسبى . فإذا كان الخطأ يوجد فى لحظات ، ويختفى فى لحظات ، فإن الله يكون وجوده مؤكداً فى لحظات وجود الأخطاء ، ولكن ماذا يكون موقف وجوده ، فى الوقت أو اللحظات التى لا يخطأ فيها الإنسان ، أو لحظات عدم وجود الخطأ (١) . والحقيقة لم يحلم أى منطقي باستخدام وجود الخطأ لتأسيس وجود الحقيقة المطلقة فالخطأ حدث بيولوجى ، قد يتوقف يوماً ما عن الوجود مثل فناء الجنس البشرى مثلاً ، بينما وجود الحقيقة يتضمن الأبدية فى الوجود (٢) . ومن الواضح أن الدليل يفترض أن الإنسان يخطأ دائماً ، مهما كانت لحظات اليقين أو أسبابه ، ولما كان الله دائم الوجود ، فإن الخطأ لا بد أن يكون كذلك ، طالما أنه دليل على وجوده . والحقيقة أن تلك النظرة ما هى إلا نظرة أصحاب اللاهوت التقليدى ، الذين دائماً ما ينسبون الضعف وكثرة الأخطاء للإنسان ، بل ويعتبرون الخطأ جزءاً من طبيعة الإنسان . ولذلك فالدليل يحمل فى أعماقه طابعاً إيمانياً تقليدياً ، يؤكد ضعف الطبيعة الإنسانية وإستمرار هذا الضعف فما دام الخطأ قائماً ، فإن الله موجود .

George Santayana : character and Opinion in The United States , Josiah Royce , (١)  
IV W.Norton & Company New York pp.99.

Ibid ., p. 100.

(٢)

## ثانياً : أوصافه

### أ - الوجود

إذا كان هناك تفرقة بين أوصاف الذات الإلهي وصفاته (١) ، فإن « الوجود » يعد من أوصاف المطلق عند « رويس » . ويأتي إثبات صفة « الوجود » من خلال الأدلة فالدليل المعرفي ، يقرر أن طالما الخطأ موجود ، لا بد أن يتصف المطلق « بالوجود » ، فتأتي صفة الوجود باعتبارها ، صفة ضرورية للحقيقة المطلقة . وكل منكر لتلك الحقيقة ، يؤكد وجودها بصورة أخرى (٢) . كما يأتي إتصاف المطلق بالوجود من خلال الصورة الأخرى لنفس الدليل المعرفي ، ومن أعتبار المطلق هو الخبرة المطلقة ، فالإنسان يعرف من التجربة ، ويقوم فكرة بتفسير هذه التجربة ، ويتضمن كل تفسير عقلى للتجربة ، الإقرار بوجود خبرة منظمة كلية ، تجد فيها هذه الخبرة الجزئية مكانها . ولما كان الحديث عن أى واقع محدود ، قد تشير إليه هذه الخبرة الجزئية ، يعنى إدراك هذا الواقع ، بوصفه جزءاً من محتوى ، خبرة أكبر وأكثر تنظيماً . فالحكم بأن هناك واقعاً حقيقياً ، يعرف بواسطة هذه الخبرة ، يعنى إعتبار هذا الواقع ، حاضر لخبرة منظمة مطلقة ، تجد فيها كل واقعة جزئية مكانها ، وهذه الخبرة المطلقة لا بد أن تكون موجوده « وجوداً فعلياً » وليست مجرد كائن مثالى (٣) .

لأن القول بأن ليس هناك « وجود » لهذه الخبرة الكلية ولا وجود إلا لخبرات جزئية ، يشير إلى وجود عالم من الخبرات الجزئية ، التى لا تتحد طبيعتها ، بأى خبرة مطلقة تنتمى إليها ، وإذا ما صح ذلك فإن عالم الخبرات الجزئية يكون ، عبارة عن ما يحدث هنا ، أو هناك أو عالم الصدفة ، ولكن السؤال الذى قد يفرض نفسه ، هو ما نوع « الوجود » الذى يوصف به هذا العالم الفعلى للجزئيات ؟ فإذا كان لا وجود هناك ، إلا إذا كانت هناك تجربة تدرك وجوده ، فإن القول « بأن عالم التجربة يكون هذا أو ذاك ، وواقعة أن الوجود لا يحوى أى وقائع أخرى غير هذه الوقائع الحاضرة للتجربة المباشرة » ، يكون عبارة عن كما لو أن الوجود ، أو الواقع النهائى ذاته ، عبارة عن موضوع لخبرة واحدة تظهر لها جزئيات العالم

(١) د. حسن حنفى : من العقيدة الى الثورة ، المجلد الثانى " التوحيد " - مكتبة مدبولى ، القايره من ٩٧ - ١١٠

J.Royce : The Religious Aspect of Philosoph pp. 391-400.

(٢)

J.Royce : The Conception of God , pp. 42-43.

(٣)

المحدود كواقعة مطلقة وحاضرة ، ولا يوجد ورائها أى وقائع أخرى ، أو وجود آخر . وحسب  
الفرض ، لا بد أن تكون هذه الخبرة واحدة وشاملة ولا تحدد بشيء غير ذاتها ، وبإختصار  
تصبح خبرة مطلقة . وبذلك تتضمن أى محاولة لإنكار وجود الخبرة المطلقة ، الإثبات الفعلى  
لهذه الخبرة (١) . وبذلك يصبح الوجود عند « رويس » مستمداً من صفة « العلم » ، فكون  
الله يتصف بالخبرة المطلقة ، فإن هذه الصفة تتضمن وجوده .

من جهة أخرى ، يستمد المطلق وجوده عند « رويس » من صور الجهل الإنسانى .  
فإذا كان الفرد يرى أن من التواضع القول بأنه ، لا يعرف حقيقة الوجود المطلق ، فإنه  
ينسى أن مثل هذا القول يعنى إقراره بأنه يدرك معنى الوجود المطلق . يعتقد الناس أن من  
السهل القول بأن الانسان لا يعرف إلا ما تقدمه التجربة المحدودة ، ويتناسون أن إذا كان  
هناك وجود لعالم الخبرة المحدودة ، لا بد أن يكون له تكوين معروف ومدرك ، حتى توجد  
هذه الخبرة، ولذلك هناك حاجة لوجود الخبرة المطلقة التى تكون الجزئيات أجزاءً منها (٢) .  
فلا وجود للخبرات المحدودة إلا بوجود الخبرة الكلية.والحقيقة أن مجرد الاعتراف بوجود  
الجهل الإنسانى ، فإن هذا الاعتراف يؤكد فى الوقت نفسه وجود الحكمة المطلقة ، لأن  
بدونها لا يمكن أن يكون الجهل موجوداً . فاذا كان الجهل حقيقياً وموجوداً ، فإن الله  
العارف بكل شيء حقيقى وموجود (٣) . كما يستمد المطلق وجوده عن « رويس » ، من  
المعرفة الإنسانية المباشرة وغير المباشرة خاصة المعرفة التى تشكل صلب العلم ، فمجرد  
الاعتراف بوجودها وبصحة الأحكام والمفاهيم العلمية ، فإنها تؤكد معها ، واقعية وجود  
الخبرة المطلقة ، وذلك طالما أن حكم العلم ، يقوم على مقارنة خبرة جزئية بأخرى ، ويحكم  
بصحة أو زيف الخبرة ، فإذا كان حكم العلم حقيقى ، فإن وجود الخبرة المطلقة حقيقى (٤) .  
وقد يتساءل فرد ما ، إذا كان الوجود من أوصاف المطلق ، فهل يكشف هذا الوجود عند  
نفسه فى فى العالم الإنسانى ؟ يجيب « رويس » بأن الله يكشف عن نفسه فى صور الجهل  
والخطأ الانسانى ، وفى الشعور بالإلم بسبب الإحساس بالنقص والمحدودية (٥) .

Ibid ., p. 44

(١)

Ibid ., p. 47

(٢)

Ibid ., pp. 15-24

(٣)

Ibid ., p. 25

(٤)

Ibid ., p. 47

(٥)

جاء وصف المطلق « باللاتناهي » أو « الأبدية » عند « رويس » ، وصفا واضحا ومباشراً علي عكس من إتصافه بالوجود ، الذي جاء تابعا لصفة العلم أو كون الله هو « التجربة المطلقة » . ف جاء « اللاتناهي » وصفاً مباشراً للذات والفكر ، فهناك الذات اللامتناهي ، والعقل اللامتناهي ، والقاضي اللامتناهي ، بل والنور والحياة والواقع كلها قد وصفت « باللاتناهي » . فا للاتناهي صفة ضرورة ، وضرورة منطقية للحقيقة ولماكانية الخطأ ، وضرورة أخلاقية لتحقيق الخير والإنتصار على الشر ، فكل الواقع يجب أن يكون حاضراً لوحدة عقل « لا متناه » (١) . يعرف كل الحقيقة وكل الإرادات وصراعتهم . ولكي لا تكون المثالية فلسفة نظرية بحتة ، فإنه لا يكفي وجود عارف « لا متناه » للعالم الطبيعي ، وإنما لا بد أن يكون عارفاً لا متناهي للخير والشر . ويقرر « رويس » أن العقل اللامتناهي ، حقيقة ثابتة وكل شك في إمكانية وجوده ، يؤكد إثباته فيستطيع الانسان أن يشك في أي واقعة محدودة ، ولكنه لا يستطيع أن يشك في « اللامتناهي » (٢) .

ويرى « رويس » أن كل الحقيقة تكون معروفة لفكر واحد ، ولا بد أن يكون « لا متناهي » لأنه لكي تكون هناك حقيقة على الإطلاق ، فإن ذلك يتضمن ، ضروره أن تكون « مطلقة » ومعروفة لفكر لا متناهي . ولا بد أن يكون الأفراد أجزاءً من هذا الفكر اللامتناهي؛ ولا بد أن يكون أدياً وحاوياً للكل ، وواحداً . فيكون كاملاً وفوق الكل ومن خلال الكل ، ومعصوماً من الخطأ (٣) ، إن في حياه اللامتناهي ، تكون الحقيقة كلها حاضرة في وحدة واحدة وتكسب وقائع العالم وجودها ، بسبب مكانتها في تلك الوحدة اللامتناهيّة. وأما بالنسبة لعالم الاخلاق ، فإن النشاط الأخلاقي الأعلى ، الذي يجب أن تشارك فيه كل الأفعال الأخلاقية الانسانية ، فإنه يكون معروفاً للإنسان بوصفه التحقق المستمر للحياة الأبدية للروح « اللامتناهي » ، وفي نفس الوقت يدرك الإنسان قيمه حياته الفردية عندما يحيا في حضرو القاضي اللامتناهي (٤) .

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy , p. 433

(١)

Ibid ., p. 434

(٢)

Ibid ., pp. 435-439

(٣)

Ibid ., p. 441

(٤)

يعتبر « رويس » الوعي الذاتى من أوصاف المطلق . ويؤكد على أن المطلق « وعى ذاتى فردى » . ويشرح رويس طبيعة الوعي الذاتى للمطلق ، من خلال شرح طبيعة الوعي الذاتى للذات المحسودة الخلوقة ، فىرى أن كل أخلاقى ، يتصف بأنه « موجود » « وعى ذاتى » ، لأن النظام الأخلاقى يتطلب إتصافه بهاتين الصفتين فهو « موجود » طالما أنه فرد فريد فى عالم المطلق ، وله هدف أخلاقى خاص به ، ويتصف « بالوعى الذاتى » بسبب إدراكه وإهتمامه بهذا الهدف . والواقع أن معرفة طبيعة الوعي الذاتى للذات المحسودة ، يرتبط بعلم النفس التجريبي وبمجموعة من الإعتبارات الأخلاقية والميتافيزيقية . فإذا ما تساءل الفرد عن « ماهية الحق » ، وعن الشخص الذى يكونه ؟ فإنه غالباً ما يتم حل مسألة « الوعي الذاتى » ، وإجابة هذين السؤالين بالدمج بين علمى النفس والأخلاق . فالفرد يشعر « بالوعى الذاتى التجريبي » من المقارنه مع الآخرين (١) . وأما شعوره بالذات الحقه ، فإنه يتم من إدراك مجموع « أنماط الوعى الذاتى التجريبي اللحظى » . بمعنى أن الذات الحقه ، هى وحدة المعنى ، ووحدة مجموع النوات التجريبية اللحظية ، التى تحقق الإشباع لفكرة ما ، وتكون هذه الفكرة بمثابة مثل أعلى ، لا يتجسد أو يتحقق فى أى لحظة من لحظات الحياة التجريبية لأى فرد . ولذلك يمكن القول بوجود « الذات التجريبية » والذات الميتافيزيقية ، التى تتكون من مجموع النوات التجريبية ، ولكن طالما أنها المثال أو الغاية فإن عدم وجودها ، يؤدى إلى عدم وجود الذات التجريبية . وبذلك يرى « رويس » أن مقوله الوعي الذاتى تظهر أولاً من « مقارنة » بين الداخلى والخارج ، أو بين الفرد والآخرين ، التى من خلالها يدرك الفرد ذاته ، ثم تكتمل هذه المعرفة لأننا من خلال نوع آخر من المقارنة تتمثل فى مقارنة الفرد بين ذاته التجريبية ، وبين المثل الأعلى الذى يسعى لتحقيقه . ويتساءل « رويس » هل يمكن نقل هذا التصور للوعى الذاتى الإنسانى للمطلق ؟ وإذا كانت تلك طبيعة أى « وعى ذاتى » ، فكيف يكون المطلق واعياً بذاته وحياته عبارة عن وحدة واحدة من الوعي أو لحظة كاملة ، حيث لا يوجد فيها آخر فى الخارج يمكن أن تقارن هذه الوحدة

J.Royce : The Conception of God , p. 280

(١)

نفسها به ؟ أى كيف يمكن للمطلق الذى ليس له جار يتباين معه ، أو مثل أعلي يسعى لتحقيقه ، أن يدرك هذه المقارنه التى يتكون منها « الوعى الذاتى » سواء كانت مع الخارج أو فى الداخل ، وهل يمكن القول بأن المطلق يتعالى على « الوعى الذاتى » (١) .

يجيب « رويس » بأن إذا تم تحليل الوحدة المطلقة للوعى المطلق ، يتضح أنها لا تحتوى فقط على أنماط الوعى الذاتى الإنسانية المحدودة ، والمقارنه بين الأنا والآخر ، أى بين الذات المطلق والأفراد ، وإنما تتضمن « المقارنات » التى يقوم بها الوعى المطلق بينه وبين نفسه بوصفه « عارفاً » « ومجرباً » « وملاحظاً » من جهة ، وبين ذاته بوصفه « إرادة ومحبة » من جهة أخرى . أى تتضمن الوحدة المطلقة للوعى ، « مقارنات » بين جوانب المطلق الأساسية المتداخلة ، فوحدة المطلق تحوى صوراً ونماذج متداخلة (٢) .

ويشرح رويس ذلك ، بأن المطلق بإعتباره وحدة شاملة للإرادة والخبرة ، لابد أن يحوى كل المحتويات التى قد يحويها أى وعى ذاتى محدود حتى يستطيع التعالى عليها ، ولكن يلاحظ أن وحدة لحظة المطلق « اللحظة المطلقة » ، ليست مجرد واقعة مباشرة فقط ، وليس مجرد مجموعة من المحتويات المتصلة والمترابطة والمباشرة فى العالم . وإنما هي أيضاً وحدة للوعى ، تتحدد بإشارتها إلى كل العمليات الفكرية التى يتم التعبير عنها فى التأملات المحدودة . إن التجربة المطلقة ترى التحقق الكامل للنسق المطلق من الأفكار ، وتكون هذه الرؤية أو هذا الوعى بالأفكار ، باعتبارها متحققة فى محتويات الخبرة المطلقة - رؤية قد نتجت من المقارنه ، وبالتحديد المقارنه بين « عالم الأفكار » و « عالم الوقائع » وبذلك يصبح هذان الجانبان المقارن بينهما جانبيين أساسيين فى الوعى المطلق . أى « الذات المفكر » « والذات المجرب » . ويرى المطلق أن كلا الجانبين يحقق كل منهما الآخر ، طالما أن الفكر بدون معطيات يكون فارغاً ، والمعطيات بدون فكر لا معنى لها . علاوة على ذلك عندما يتم التفكير فى المعطيات ، فإنه يكون أساساً مفكراً فى تحققه هو نفسه ، وفى الجانب الواعى الذى يقوم بالتحقق ، وبذلك تحدث « مقارنة » مرة أخرى بين المطلق بوصفه « ناظراً » للفكر الذى يتحقق ، والمطلق بوصفه « مفكراً » ، ثم يشكل هذان النمطان من الوعى بدورهما ، جانبيين متباينين لوحدة المطلق . وهما « المفكر » و « الناظر » أو « الرائي » .

Ibid., p. 298

Ibid., p. 302

كذلك يظهر هناك جانب آخر للتباين بين « العارف » ( المفكر والمجرب والناظر ) من جهة والمطلق بوصفه « إرادة أو محبة » من جهة أخرى . وبذلك تتعدد المقارنات داخل وحدة المطلق ، بين « العارف » « المجرب » « الناظر » « المرید » « المحب » ، أو بين النوات ، والتي من خلالها تحقق كل « ذات » منهم كيانها فى غيرها ، ولكنها لا تنوب فيها ، وبهذا المعنى يمكن القول بأن الوحدة المطلقة للوعى ، لا تحوى الأنماط المتعددة المحدودة من الوعى الذاتى فقط ، ولا تحوى مقارنات بين الذات المطلق والأفراد فقط ، وإنما تتضمن مقارنات بين جوانب المطلق ذاته ، والتي تعد جوانب أساسية لوحدته . والتي تحوى الصور المختلفة من أنماط الوعى الذاتى ثم تتعالى فوقها ، طالما أنها تتشكل بهم ومن خلالهم (١) . إن وحدة « المطلق » هى وحدة مجموعة متنوعة من الوظائف العقلية المتداخلة والمتبادلة ، والمتباينة ، ولما كانت كل وظيفة منهم تشير إلى الآخرين ، وتحقق من خلالهم بسبب التباين ، فإنه يمكن إعتبارهم نوات واعية حيث تكون كل منهم ، واعية بأن النفوس الأخرى ما هم فى الحقيقة ألا هى نفسها متحققة ومعبر عنها ، وبهذا فقط يكون « المطلق » واعياً بذاته . فالوعى الذاتى الحق يتضمن مقارنات وتناقضات ، ولكنها لا بد أن يتسق فى وحدة حتى وإن كانت وحدة الوعى المطلق .

#### د - الشخص

يرى « رويس » أن مفهوم الشخص يعتبر من المفاهيم التى كان لها أثر كبير فى تصور الإنسان لأوصاف الله . فغالبا ما يتم وصف الله بأنه « شخص » ، ولقد ظهر هذا المفهوم بوصفه أحد أوصاف الله ، بسبب إتخاذ الإنسان من إثبات وجوده ووجود نفسه ، طريقاً إلى معرفة الله ومعرفة أوصافه . فغالبا ما يتساءل الفرد عن كينونته أو من يكون ؟ لكى يصل إلى تصور الله ، فيكتشف من إجابة السؤال ، أنه إما أن يكون « فكراً » ، أو « إرادة » وبالتالي يتصور الله شخصا مثله ، ذات قدرة فكرية وإرادة تفوق فكرة وإرادته وذلك طالما إنه يجد دائما ما يعترض طريق تحقيق إرادته . فالله « شخص » آخر غيره ،

Ibid ., p. 300

(١)

ويؤكد عالم الموضوعات الخارجية ، وقوانينه وأحداثه ، أنه شخص قوى عظيم ، يحد من أفعاله وإرادته (١) . ولقد برر البعض تصور الله بأنه شخص ، بأنه تصور ضرورى للشعور الخلقى وللشعور « بأبوة الله » ، فلا يخاف الفرد من الله إلا إذا كان الله شخصا آخر أقوى وأعظم ولن يعامل الفرد الله بوصفه « الأب » إلا إذا شعر بمعارضته لإرادة الحرة ، ومقاومة العالم الذي خلقه لرغباته وإرادته . والحقيقة أن كل هذه التفسيرات لتصور الله شخص ، تعد تصورات أقرب إلى الحقيقة ، وأن كانت تحتاج إلى تعميق الوعى بالإرادة الحرة ، وبالموضوعات الخارجية التي تعارضها (٢) .

ولذا يؤكد « رويس » أن معرفة الإنسان لذاته تتضمن الإقرار بوجود الله « كشخص » ، فيدرك الإنسان فى كل مرة يفكر فيها فى ذاته ، أو فى العالم الخارجى ، أنه لى يكون الأنا اللحظية أو الكائن الذى يفكر فى عالم الموضوعات الحاضر أمامه ، لا بد أن يكون على صلة « بشخص » مفكر كامل ، يتطلبه وعيه وفكرة المحدود . فلا يعرف الإنسان نفسه من التجربة وإنما يستطيع فحصها ، وإكتشاف أنها تتطلب وتتضمن وجود « وشخص » واحد يحوى العالم كله (٣) . من جانب آخر يرى « رويس » أنه إذا نظر للشخص أو الفرد من الناحية الأخلاقية ، فإن الشخصية مقولة أخلاقية . فإذا كان الشخص كائنا واعياً ، فإنه ينظر لحياته من الناحية الزمنية ، بأنها تسعى لتحقيق كما لها من خلال أفعالها ، وينظر لنفس الحياة من الناحية الأبدية بأنها تحقق كما لها بالمعرفة الحاضرة بكل مساعيها الزمنية . كذلك يكون الله شخصا إذا نظر لحياته من الناحية الزمنية ، فإن حياته تكون كل عالم الوعى ، طالما إن فى أفعاله الزمنية تجاه الكمال ، ينتقل وعيه بالعالم من لحظة لأخرى فى النسق الزمنى ، من فعل إلى فعل ومن مرحلة إلى مرحلة ، وإذا نظر لحياته من الناحية الأبدية، فإن حياة الله تكون كلا لا متناهياً ، تشمل كل العمليات الزمنية « اللانهائية » ، وينظر لها كحياة واحدة هى حياة الله نفسه . إن الله « شخص » لأنه يكون وعياً ذاتياً ، ولأن الذات الذى يدركه ، يكون كماله الأبدى متحققاً من خلال كل الأفعال الزمنية الأخلاقية ، وكل عمليات التصور ، وكل أفعال النفوس المتناهية (٤) .

J.Royce : Studies of Good And Evil Implication of Self conscious pp. 141-142 (١)

Ibid ., p. 143 (٢)

Ibid ., p. 162 (٣)

J.Royce : The World and Individual p. II pp 416-420 (٤)

يثبت « رويس » « صفة الوجدانية » للمطلق ، ويقصد بها أن عندما يقوم الفكر فى أى وقت بربط مجموعة من الأفكار الجزئية ، فى وحدة لحظة واحدة من لحظات الوعى ، فإنه يتصف بالوجدانية ، كذلك يتم إثبات أن العقل الكلى الذى يربط أفكار البشر فى وحدة فكرة مطلقة ، مع كل الموضوعات ، وكل الأفكار عن هذه الموضوعات ، فإن هذا العقل الكلى لا بد أن يكون واحداً ، وهو ما يمكن تسميته « الله » أو إله الفكر المثالى منذ أفلاطون (١) . ويصف « رويس » هذه الوجدانية ، التى يتصف بها المطلق بأنها ليست وجدانية بسيطة . فإذا كان كل ما يوجد يعنى تحقيق هدف ما ، فإن الوجود كله تحقيق للهدف المطلق . ولا يكون هذا الهدف المطلق واحداً فقط ، وإنما يكوم مركباً من أهداف لا متناهية ، فوحدهت وحدة إرادات كثيرة . كذلك يكون الهدف المطلق من الناحية الزمنية بالرغم من وحدته . فتكون من عملية ذات مراحل متلاحقة ، يمثل الحاضر فيها مرحلة بين مراحل مضت وأخرى لم تحدث بعد ، وفى نفس الوقت يكون هذا الواحد أبدياً ، يرى كل هذه المراحل فى لحظة واحدة . (٢) . ويرى « رويس » بأن المطلق يكون واحداً ، ويكون كثرة ، لأن فى العلاقات المتبادلة فى التعبيرات المتباينة للإرادة الواحدة ، تكمن فرصة تجسد كل الحياة وتحقيق الوعى الذاتى . وإذا كان لا يمكن أن يكون الله واحداً إلا إذا كان فى كثرة ، فلا يمكن من جهة أخرى تعدد الأفراد ، الذى يمكن ملاحظته فى الحياة ، إلا إذا كان كل الأفراد يشاركون فى حياة الواحد المطلق (٣) .

والحقيقة يلاحظ بالنسبة لأوصاف الله، أن وصف الله بالوجود، لا يعنى عند « رويس » أنه الوجود بذاته، بمعنى أن الله لا يعتمد على شىء إلا على نفسه أو غير مخلوق ، فلا يعترف « رويس » بالخلق سواء بالنسبة لله أو للإنسان ، وبالتالي لا يحتاج نفى صفة إنتسابه لما قبله ، بل من الواضح أن وجوده يتم من خلال وجود الأفراد . حقيقة لا يشكلون وجوده ، وإنما يعبر عن نفسه فيهم . لذلك صفة « الوجود » هنا صفة يتصف بها كل من الله

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy , p. 476

(١)

J.Royce : the World and The Individual , p. II p. 336

(٢)

Ibid ., p. 331

(٣)

والإنسان ، ولا أمتياز للمطلق بها . كذلك وصف الله بأنه لامتناهى ، وصف لا يدل على شيء موجود ولا يصدر حكماً على موضوع بل تعبير عن حالة من الشعور وأمانى الذات ، فهو تعبير إنشائي أكثر منه خبري . أن اللامتناهى تعنى ذكرى الإنسان وخلوده فى أفكار الآخرين ، ووصف للشعوب (١) . لذلك من الواضح أن « رويس » فى وصفه للمطلق « باللاتناهى » لا يعطى للمطلق صفة تمييزاً قاطعاً عن الإنسان ، بل ماهى إلا صفة لامانى الإنسان . والحقيقة أن ما يؤكد تشابه أوصاف الله مع أوصاف الإنسان عند « رويس » أو على أكثر تقدير تشابهها مع أوصاف الانسان الكامل أو المثالى ، أن « رويس » لم يصف المطلق « بالقدم » ، فالقدم ليست أمنية إنسانية أو رغبة للشعور، حقيقة تعتبر الأصالة من الصفات التى يقدرها الإنسان ، ولكن كون القدم يعنى ما لا أول له ، وما لا بداية له ، فإنها صفة يصعب نسبها للإنسان ، لأن من الواضح أن الإنسان له بداية واضحة يمكن ملاحظتها ومعرفة ملابساتها ، فالإنسان لا يتصف « بالقدم » ، ولذلك لا يعتبر وصف القدم ، أحد أوصاف المطلق عند « رويس » فلا وجود للمطلق بدون الأفراد ، والإرادات وأعمال الناس . كذلك ما يؤكد وصف المطلق بصفات الإنسان أن « رويس » لم يصف المطلق بأنه « مخالف للحوادث » ، بل إنه يعبر عن نفسه من خلالها ، وأحياناً يستخدم إسم المطلق كإسم للعالم ، طالما أن ليس هناك نهاية لأحداث العالم ، وبالتالي فالعالم عالم الله وعالم الإنسان ، وليس هناك أوصاف جوهرية تميز المطلق عن الفرد والعالم .

### ثالثاً: صفاته

#### أ - العلم

يعتبر « رويس » العلم الصفة الأولى للمطلق ، وأنها الصفة الأساسية التى يمكن أن تتولد عنها ، أى صفات أخرى قد يتصف بها المطلق . ولا يبحث « رويس » أو يبرر سبب وصفه المطلق بالعلم ، أو بأنه « عالم بكل شيء » وإنما يبحث عن النتائج المنطقية التى يمكن

(١) د. حسن حنفى : من العقيدة الى الثورة - المجلد الثانى ص ١٤٢ .

أن تترتب على وصف المطلق بهذه الصفة ، ثم ينتقل إلى إستنتاج الصفات الأخرى التي يمكن أن تستنتج أو تترتب عليها . ويرى « رويس » أن معرفة النتائج المنطقية لصفة العلم يتم من خلال معرفة المقصود بالعلم ، أو بصفة العلم إذا ما تم نسبها للإنسان . فالمقصود بالعلم ، أو أن المطلق عالم بكل شيء ، أنه يكون لديه إجابة لكل تساؤل أو لكل سؤال (١) ومعنى التساؤل فى مفهوم البشرية ، يتضمن التفكير فى وقائع أو خبرات ممكنة ، لا يراها الإنسان حاضرة أمامه . لذلك يتضمن التساؤل إنفصالا بين « الأفكار » و « الموضوعات » ، بين ما يفكر فيه الفرد ، وما يعتبر حضوره ممكنا فى الخبرة ، أى إنفصال بين الفكر والتجربة من جهة أخرى ، تعنى الإجابة على السؤال تحقق الأفكار فى التجربة ، وحدث صلة مباشرة بالوقائع والخبرات ، التى تعتبر مؤكدة لأفكار معينة . لذلك هناك عاملان أو عنصران للمعرفة الحقة ، أو العلم الكامل ، الأول « وجود الواقعة » ، أو الشيء القابل للملاحظة ، والثانى « وجود الفكرة » المجردة لخبرة فعلية أو ممكنة . والواقع أن إستمرار الفصل بين هذين العنصرين ، يؤدي إلى إستمرار التساؤل ، أما إذا تم التغلب عليه ، فإن من الممكن إجابته الأسئلة . فإذا تم إفتراض وصف المطلق « بالعلم الشامل » ، فإن ذلك يعنى عدم وجود إنفصال بين هذين العنصرين للمعرفة ، فتكون كل وقائع خبرته ، إجابة على كل الأسئلة الفعلية المنطقية (١) ، وتكون كل أفكاره متحققه فى خبراته . ولكن مع ذلك يستمر هذا العنصران للمعرفة ، « الفكرة والتجربة » متميزان عن بعضهما البعض فيكون لديه أفكار ، ولديه شعور بعالم من « المعطيات المباشرة » للوعى ، والحاضرة لديه « كوقائع » ملاحظة . ولكن الفرق بين علمه والعلم الإنسانى ، أن هذه الوقائع لا تكون فيه كمجرد وعى بوجودها ، وإنما تكون مرئية بإعتبارها مشبعة لهدفه ، وفى نفس الوقت محققة لإجابة أى تساؤل إنسانى ، أو قد يطرحه فرد عادى من أفراد الإنسان (٢) . كذلك إذا كان الإنسان فى بعض الأحيان ، لا يجد إجابته لتساؤلاته ، خاصة تلك التى تبدأ بكلمة لماذا ؟ والتى تتعلق بأمور جمالية أو « أخلاقية » أو ميتافيزيقية ، الأمر الذى قد يدفعه لتصور وجود قوة فوق إنسانية ، فإن وجود صفة « العلم الكامل » للمطلق ، لا تؤدي إلى وجود تساؤل بدون إجابة ، أو أن تتطلب الإجابة عليه وجود قوة أخرى أعلى منه ، لأن مالك هذه الصفة تتحقق له إمكانية الإجابة على كل التساؤلات ، حتى ما يتعلق منها بالأسباب ، لأنه تكون لديه وحدة « الفكر والواقع » ويكون مالكا للعالم .

Ibid ., p. 10

(١)

Ibid ., p. 11

(١)

كذلك يرى « رويس » أنه إذا كانت تجربة الإنسان ، غالباً ما تكون ناقصة ، لأن دائماً ما يكون هناك أفكار ، لا يستطيع الإنسان التحقق منها ، وينظر التجربة ، لكي تبين ، له الصحيح أو غير الصحيح من الأفكار ، فإن المطلق أو الكائن العالم ، تكون تجربته مطلقة ، لأنه لن تكون لديه أى أفكار عن خبرات واقعية أو ممكنة ، تكون بعيدة عنه أو غريبة ومنفصلة . فتكون خبرته مكتفية بذاتها ، وليست جزءاً من خبرة أوسع ، وطالما أن فكره ليس محدوداً ، فإنه يصبح فكراً مطلقاً ، أى كامل بذاته ، حار لذاته ، لا يحتاج لإكمال أو لتصحيح . وبذلك يكون « المطلق » عبارة عن وحدة أو اتحاد الفكر المطلق مع الخبرة المطلقة أو يكون فكر مطلق وخبرة مطلقة فى نفس الوقت ، كذلك يتصف فكر وتجربة هذا الكائن المطلق بالتنظيم . فإذا كانت من طبيعة الأفكار الإنسانية والخبرات أن تأتى مفككة ، فإن أفكار وخبرات المطلق تكون مرابطة ومنظمة . لأنه يعرف صلة هذا بذاك فى العالم ، فيكون له كل واحد ، وخبرة واحدة ونسق واحد من الأفكار ، ولذلك فالمطلق هو الخبرة المنظمة والفكر المنظم (١) .

#### ب - الإرادة

وتأتى الإرادة ، كصفة ثانية مستنتجة من صفة العلم الشامل ، ومتصلة بمفهوم « الخبرة المطلقة » . فإذا كانت كل الأفكار وكل الوقائع ، تكون حاضرة فى وحدة الوعى المطلق فى لحظة واحدة أبدية ، فقد يظهر التساؤل ، بأن هل يعرف المطلق فقط ؟ أم أنه يريد أيضاً ؟ هل مفهوم المطلق مفهوم نظرى ؟ أم أن صفة العلم أو المعرفة تتضمن دائماً أكثر من مجرد المعرفة ؟ . يؤكد « رويس » أن صفة الإرادة صفة ملازمة للعلم ، وتعتبر عنصراً من عناصر الخبرة المطلقة أو المعرفة المطلقة ، بل وتعتبر الإرادة هى العامل الجديد ، التى تحصل منه وحدة الوعى المطلق على وحدتها وتفردها (٢) . ويبين « رويس » أن الفهم الصحيح لمعنى الإرادة ، يؤكد إنها عنصر ضرورى للخبرة المطلقة ، لإعتمادها على الإنتباه . فغالبا ما يتم القول بثلاثة عناصر للإرادة « الرغبة » « والإختيار » « والفعل »

المؤثر . ويعبر مفهوم الرغبة عن المشاعر التي تظهر في العقل ، ويشير الإختيار إلى العملية التي يتم بها إشباع الرغبات ، ويوضح الفعل المؤثر الفاعلية التي يتم بها تحقيق الرغبة في الخارج . ودائماً ما ينظر للفاعلية على إنها الجانب الأكثر أهمية في الإرادة . فالإرادة هي الفعل . والحقيقة لا يوضح أى من العناصر الثلاثة الماهية العميقة للإرادة . وإذا ما تم تحليل هذه العناصر ، يتضح أن عنصر « الإنتباه » هو العنصر الأساسى وراء تلك العناصر ، بل والكامن في كل درجات الإرادة . فكل العمليات الإرادية « إنتقائية » وليست « إبداعية » ولا يستطيع الإنسان أن « يريد » شيئاً جديداً ، فقد يكون الموقف جديداً ، ولكن الأفعال المرغوب القيام بها ، دائماً ما تكون معروفة ومكتسبة لذلك لا تعتبر الإرادة خلاقة ، والمسألة كلها ، أنه عندما يريد الفرد ، فإنه يسعى لتحويل الإمكانية التي فعل ، بالإعتماد علي أحد الممكنات المعروفة . فجوهر الإرادة ليس الإختراع أو الإبداع وإنما « الإنتباه » . فإذا ما تم تعريف الإرادة ، بأنها عملية تتضمن « الإنتباه » لأحد الموضوعات ، أو تفضيل موضوع على آخر ، فإن صفة الإرادة تعتبر صفة ضرورية للمطلق بوصفها عنصراً ضرورياً للخبرة الكلية (١) . فإذا كانت الخبرة المطلقة تجد افكارها متحققه في الواقع ، وتجد أمثلة جزئية لهذه الأفكار ، بينما تكون هناك بعض التحققات الممكنة لنفس الأفكار ، مازالت مجرد فروض وتشكل جزءاً من الخبرة المطلقة أيضاً ، فإن أحد جوانب الخبرة المطلقة يطابق « الإنتباه » وذلك طالما أن الإنتباه يتطلب إهمال مجموعه من الموضوعات الممكنة ، حتى يتم « الإنتباه » لموضوع فردي معين . أى يضحى « الإنتباه » بالممكنات الفكرية من أجل تحقيق الأفكار ، فيفقد ليكسب ، يفقد الممكنات ليجد الحياة الفعلية الواقعية . لذلك يجب أن يصف الخبرة المطلقة ، بالإرادة أو الإنتباه ، الذى يحقق به ، لأفكاره الكلية الحصول على أمثلتها الجزئية .

وتتصف الصورة العامة للإنتباه ، والتي يتم نسبها للخبرة المطلقة « بالحرية » . بمعنى أن بينما تعتبر عمليه الإنتباه مسنولة عن تحديد الأفكار التي تتحقق في العالم المحسوس ، فإن هذا الجانب من الخبرة الكلية ، الذى يدرك بإعتباره أفكاراً متحققة ، يعد جانباً معقولاً تماماً . ولكن من جهة أخرى لا يدرك هذا الجانب بوصفه محدداً بواسطة أى أفكار ، أو بواسطة المطلق ككل ، و كحتاج إليه من الفكر ، وبهذا المعنى يظهر الجانب

الإنتباهي للخبرة المطلقة ، بأنه يمتلك فى ذاته الحرية المطلقة . فالموضوع الذى يشبع ويحقق فكرة ما ، يكون من ناحية « ضرورياً » ، أى يجب أن يشبع الفكرة ، ولا يستطيع الإمتناع عن إشباع فكرة ما ، ولكنه يكون من ناحية أخرى « حراً » ، وذلك بوصفه تحقيقاً فردياً لأفكار ، لا تستطيع تحديده مسبقاً . كذلك يتم إدراك الواقع العيني على أنه يحقق الأفكار ، ولكنه يكون حراً وغير مقيد . ولذلك تكون إرادة العالم حرة خالقة للعالم ، ولكن لا يكون الخلق فعلاً خارجياً مُنفصلاً أو علة لحدوث العالم ، أو له وجود مستقل عن وجود العالم (١) . والواقع أن بدون الإرادة كان لا يمكن لأفكار المطلق أن تتحقق . لأن التحقق قد حدث بسبب الإختيار والإنتباه الإنتقائى لهذا العالم ، من بين سلسلة من العوالم الممكنة . كذلك لا تشكل الإرادة قوة ثالثة مستقلة فى العقل ، وإنما تمثل جانبا من الوعي ، يرتبط بكل جزء من أجزائه وبكل واقعه فيه ، ويجسد أفكاره فى وقائع باطنية معينة . ولا يعنى ذلك أن المطلق يفكر أولاً ، ثم يرغب أو يريد تشكيل أفكاره فى تجربته ، وإنما يعنى تضمن وحدة الوعي المطلق . لمجموعة من الموضوعات المباشرة التى تحق فيها أفكارها . وتريد تأمين هذا التحقق ، فى محتوى واحد للخبرة الكلية ، بحيث لا يكون هناك موضوع ، يمكن أن يتم التفكير فيه ، ولا يكون فى حوزته ، أى لا يكون لديه رغبة غير مشبعة ، أو فكر غير متحقق . إن الإرادة وحدها هى القادرة على تحقيق محتوى واحد للخبرة الكلية ولئن كانت طبيعة الفكر تتطلب وجود أفكار ممكنة ، ومهما تقدم الخبرة تظل هناك هذه الإمكانية للأفكار ، فإن الإنتباه يعد قادراً على جعل الوعي الذاتى مكتملاً ، لذلك كمال وإكتمال الوعي يتضمن عنصر الإرادة (٢) .

#### ج - المحبة

ويستنتج « رويس » من صفة إرادة ، صفة « المحبة » أو ما يسمية اللاهوت التقليدى « بالحب الإلهى » . فإذا كان الإنتباه عنصراً كامناً فى الإرادة ، ويتصف الوعي المنتبه بالإرادة ، فإن طبيعته « الإنتباه » ، تظهر صفة « المحبة » ، كصفه ضرورية لهذا الوعي . خاصة عندما « يختار » موضوعات معينة ، ينتبه إليها ، ولا تكون أسباب الإختيار واضحة فى الموضوعات التى تم إختيارها . وبذلك يصبح الموضوع المحبوب ، عبارة عن موضوع

Ibid ., p. 204

Ibid ., p. 212

(١)

(١)

ملاحظ في الواقع ، ومعروفاً بوصفة تجسداً لأفكار معينة ، ولكنه يكون مفضلاً ومرغوباً دون سبب واضح للوعى الذي إنتقاه . ولا يكون الوعى مدركاً للخصائص والصفات ، التي جعلت الموضوع المحبوب مفضلاً عن غيره (١) .

والحقيقة أن ما يكون واضحاً للوعى « المحب » ، أنه لا يمكن لموضوع آخر ، أن يحتل موضع « الموضوع المحبوب » ، أو يأخذ مكانه ، أما سبب محبة الموضوع وتفضيله عن غيره فإنه يظل مجهولاً للوعى . فمثلاً إذا نظر للعالم بإعتباره تجسيداً لفكر كائن مطلق ، فإن هذا العالم ، يكون في نفس الوقت « موضوعاً » لمحبة هذا الكائن المطلق ، وذا قيمة فريدة لدية . ولا يكمن من سبب إكتساب ذلك العالم ، لهذه القيمة الفريدة ، فى كونه تجسيداً لأفكار أو مثل عليا ، وإنما فى إختياره وإنتقائه من بين العديد من العوالم الممكنة ، التى كان من الممكن أن تعبر عن نفس الأفكار . لذلك فهذا العالم يتصف بأنه تجسيد لفكر المطلق وموضوعاً لمحبه . وإذا أمكن شرح أسباب إعتبار هذا العالم تجسيداً لأفكار المطلق ، فإن سبب إختيار المطلق لهذا العالم يظل مجهولاً . أى سبب تفضيله وإختياره من بين أى مجموعة أخرى من العوالم الممكنة ، لتحقيق وتجسيد أفكاره . لذلك يظل هناك سبباً غير واضح لإختياره ، وهذا السبب هو الحب (٢) . فالمحبة صفة من صفات المطلق .

بعد هذا العرض لأدلة وجود المطلق وأوصافه وصفاته ، من الواضح أن مفهوم الله عند « رويس » قد جاء معبراً الى حد كبير عن إله الفلسفة وإله المسيحية . فاذا كان الانسان يدركه من معرفة الصواب والخير ، ومن مراقبة الوعى الباطنى ، أى يعرفه من الداخل وليس من الخارج ، ومن مراقبة العمليات الفكرية للوعى ، فهو إله المثالية . وإن كان يتصف بأنه موجود ولا متناهى وشخص فهو إله المسيحية . والحقيقة أن المفهوم قد جاء حاوياً ومعبراً عن مفهوم الله كما ظهر لدى أصحاب الفكر المثالى والفكر البراجماتى ، من جهه وكما ظهر فى اللاهوت المسيحى القديم والحديث من جهة أخرى . فيقترب المفهوم من إله ديكارتر ، طالما يكتشفه الإنسان من الشك المعرفى (٣) . ويفتش عنه فى ذاته حتى يصل إلى معرفته .

Ibid ., p. 214

(١)

Ibid ., p. 216

(١)

J.Rkoyce : The Religious Aspect of Philosophy , pp.391-400

(٢)

ويعتبر إله « فشته » فكل شيء يرد إلى الوعى الذاتى والواجب الخلقى دليل على وجوده (١) . وإله « شلنج » فهو وحدة الفكر والطبيعة (٢) ، وإذا كان يعبر عن نفسه فى كل شيء ويحوى التناقضات والتباين جوهر وعيه الذاتى فهو مطلق « هيجل » . وإله « شوبنهاور » طالما أنه الإرادة الكلية (٣) . وإذا كان الله عبارة عن الوحدة المنطقية (٤) التى يكتشفها الفرد ، فإنه تعتبر صورته أخرى للذات الحقه عند « كانط » . كذلك ألا بعد القول بأن مجرد الإعتراف بالجهل الإنسانى ، يؤدى إلى الإعتراف بوجود الحقيقة المطلقة (٥) ، مجرد صورته أخرى لموقف « كانط » النقدى . فإستحالة البرهنة الفعلية على وجود الله ، قد أدت « بكانط » فى النهاية إلى الإيمان بوجوده . وعند « رويس » إعتراف الإنسان بجهله وإثباته ، دليل على وجود المطلق العالم بكل شيء فالفكرة واحدة فى إثبات وجود الله من خلال الجهل الإنسانى ، وقصور القدرات المعرفية للإنسان . وإذا كان الله يكتسب مشروعية وجوده من حاجة الإنسان للحرية والسلوى والراحة ، ويستمد منه الثقة فى تعامله مع الآخرين ومن الأفضل الإعتراف بوجوده (٦) . فهو إله البراجماتية . وبذلك يصبح تصور الله ومفهومه معبراً عن الفكر المثالى والبراجماتي .

أما من حيث وصف المفهوم أو تصور الله عند « رويس » بأنه أقرب الى تصور الله فى اللاهوت المسيحى ، أو أنه يبدو كما لو أن المفهوم المسيحى لله قد إكتسب صورة المعقولة ، فإنه يظهر فى تجسد ثالث « العقل والتجربة والإرادة » ، فإذا كان المطلق يحوى عناصر مختلفه وكل عنصر منهم يكسب وجوده من خلال علاقته بالأطراف الأخرى ، والوعى الذاتى للمطلق مركب من وظائفه الداخلية ، فيعرف ويلاحظ ويريد ويراقب أفكاره وتجسداتها ، وهناك العارف والملاحظ والمريد والكل فى واحد (٧) فإن المطلق ما هو إلا كثرة فى واحد ،

Ibid ., p. 466

(١)

J.Royce : The Spirit of Modern Philosophy. pp.372-374.

(٢)

J.Royce : The Conception of God , pp.280-300

(٣)

J.Royce : the Religious Aspect of Philosophy, p.425

(٤)

J.Royce : The Conception of God pp. 44-47

(٥)

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy, p. 466

(٦)

J.Royce : The Conception of God p. 300.

(٧)

وما هو إلا مجموعه من « الأقانيم » . والحقيقة وبالرغم من أن مفهوم الله فى المسيحية يعبر عن وحدانية الله ، وأن الله واحد (١) وأنا الأول والآخر ولا إله غيرى (٢) ، إلا أن هناك تعبيرات يفهم منها أن الله جمع وليس مفرداً ، فعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا (٣) ، وهو ذا الإنسان قد صار واحداً منا (٤) ، وقال المسيح لتلاميذه إذهبوا وتلمنوا جميع الأمم ، وعمدوهم بإسم الأب والإبن والروح القدس (٥) . لذلك إذا كان مفهوم المطلق الواحد عن « رويس » يعنى وحدة مركبة وليست بسيطة ، ومفهوم الله فى المسيحية يجمع بين الوحدة والكثرة ، فإن مطلق « رويس » ما هو إلا إله المسيحية .

كذلك من الملاحظ أن أوصاف وصفات الله عند رويس كالوجود واللاتهاى والوعى الذاتى والشخصى والوحدانية والعلم والإرادة والمحبة ، كلها صفات ويمكن ررها إلى المسيحية . ودائماً ما تنسب إلى إله المسيحية . فيظهر وصف الوجود فى قول الله لموسى « أهى الذى أهى » أى تعنى « أكون ما أكون » (٦) ، فالوجود هو الإسم الخالص لله فلا يوجد إلا إله واحد وهذا الإله هو الوجود (٧) . ويوصف الله باللامتناهى « وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى (٨) ، وتظهر الوحدانية كوصف لله فى إسمع ياسرائيل إلهنا رب واحد (٩) ، وأنا الرب وليس آخر لا إله سوى (١٠) . وتأتى صفة العلم فى أنت وحدك قد عرفت كل قلوب بنى البشر (١١) ، وكل كلمة هى من قبل الرب وهى معه إلى الدهر (١٢) . وتظهر الإرادة فى

(١) يواس : الرسالة الى أفسس : ٤ : ٦

(٢) سفر اشعيا : ٤٤ / ٦

(٣) سفر التكوين : ١ : ٢٦

(٤) سفر التكوين : ٢ : ٢٢

(٥) انجيل متى ٢٨ : ١٩

(٦) سفر الخروج : الاصحاح الثالث ايه ١٤

(٧) أتين جلسون : روح الفلسفه المسيحية فى العصر الوسيط ، ترجمة أمام عبد الفتاح امام ، مديولى القاهره ٩٦ ص ٩١

(٨) رساله يواس الى أهل رومية : ١ : ٢٤

(٩) سفر تثنية : ٤٦

(١٠) سفر اشعيا : ٤٥ : ٥

(١١) سفر الملوك الاول : ٨ : ٢٩

(١٢) سفر يشوع : ١ : ١ - ٢

كل ما شاء الرب صنع فى السموات والأرض والبحار وفى كل اللّجج (١) ، وإله محبة من لا يحب لا يعرف الله لأن الله محبة (٢) . والله محبة ومن يثبت فى المحبة ، يثبت فى الله والله فيه (٣) . وأما بالنسبة لوصف الله بأنه الشخص ، فيظهر فى حديث الله فى العهد القديم ، « أنا إله أبوك ، إله ابراهيم ، وإسحاق ويعقوب ، أى الشخص فى مقابل الشيء ، أى ذات واعية ، يخاطبة الأنبياء » يا إله : إسمع لدعائى إسمع يا الله صراخى وإصغ إلى صلاتى (٤) . ويظهر فى العهد الجديد تصور الله « كشخص » ، أو ذات ، وطور اللاهوتيين المسيحيون مفهوم الله كشخص فالله ، خلق الناس على صورته ، ولذلك يتعامل معهم محترماً حرّيتهم ومسئوليتهم (٥) .

كذلك من الواضح أن « رويس » قد قصد التوفيق بين الفلسفة والدين فكان يشير إلى المطلق أو الله ، أو إلى أى إسم آخر من أسماء المطلق « كالقاضى الأعلى » أو مفسر العالم ، إلى آخر مسمياته ، بإستخدام صيغة « المذكر » بل ويبدو أنه كان متعمداً فى إستخدام هذه الصيغة فى تفسيراته الفلسفية أو الدينية للمطلق . والمعروف أن إستخدام هذه الصيغة يتفق مع لغة ومفهوم الإيمان المسيحى ، فالكتاب المقدس كان يشير إلى الله بلفظ « المذكر » ، فأنا معك طول الوقت ، . كذلك يبدو أن رغبة « رويس » فى التوفيق بين الدين والفلسفة فى « مفهوم المطلق » ، قد جعلته يقرر أن مفهوم الله عنده ، يعتبر إمتداداً لمفهوم أرسطو عن الله العالم بكل شيء (٦) . وصرح فى نفس الوقت بأن مفهومه يشبه مفهوم توما الإكوينى (٧) . والحقيقة أن إستخدام صيغة « المذكر » للإشارة إلى المطلق أو إستخدام صيغة « المفرد » ، لا يتفق تماماً مع لغة الكتاب المقدس ، فأحياناً يستخدم الكتاب صيغة المفرد للإشارة إلى الله وأحياناً أخرى يستخدم صيغة الجمع ، « يعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا (٨) » كذالك من الواضح أن مفهوم الله عند أرسطو يختلف عنه عند

(١) مزامير : ١٢٥ - ٦

(٢) رساله يوحنا الاول : ٤ : ٨

(٣) رساله يوحنا الاولى : ٤ : ١٦

(٤) مزامير : ١٦ : ١

(٥) John Oman : Grace and Personality (1917)The Association Press,1961 p.50

J.Royce : The Conception of God p. 49

Ibid ., pp. 49-50

(٨) سفر التكوين ١ : ٦

« رويس » إذ قد يفهم من بعض آراء أرسطو أنه كان مؤمناً يتعدد الإلهية (١) ، بل واله أرسطو « المحرك الذى لا يتحرك » ، من الواضح أنه لا يشعر بمشكلات البشرية ومعاناتهم ، مثلما يشعر المطلق عند « رويس » . وأما وصف « رويس » للمطلق بأنه إله توما الاكوينى ، فالحقيقية ان اله « توما الاكوينى » خالق ولا يتجسد فى أفراد ، الامر الذى يجعله مختلفاً عن تصور المطلق عند « رويس » .

والحقيقة إنه إذا كان المطلق هو العارف والقاضى والمريد ، فالعارف فتح لأفاق المعرفة أمام الإنسان ، ودافع للبحث والتقصى ، فإله يظهر فى كل فكرة توحد وتربط بين مجموعته من الأفكار فى وحدة منطقية ، والقاضى رمز للعدل والحياد الخلقى ، والمريد دعوة للعمل ، وعدم الفصل بين النظرى والعملى ، فلا حدود للإرادة . وإذا كان المطلق هو الخبرة المطلقة ، فذلك دعوة الى العلم التجريبي ، ولا حدود للتجربة الإنسانية ، فالله هو التجربه المطلقة ، ولا تعارض بين العلم والدين ، لأن المطلق هو التجربه المطلقة التى يسعى إليها العلم ، وكل ما تكشف عنه التجربه ، يعد مقبولاً من المطلق ، مهما كانت النتائج . كذلك إعتبار المطلق العقل الشامل ، دعوة للتفلسف وفتح مجال الفلسفة والمعقولية إلى ما لانهاية ، فلا تعارض بين الفلسفة والدين . وبالرغم من خطأ الإنسان وجهله ، فالحقيقة ممكنه ، والأخطاء جزء منها وليست إنكاراً لها أو تعنى إستحالتها وإذا كان الخطأ ، لا قيام له ، إلا من خلال الإعتراف بوجود المطلق ، فالخطأ ليس ضعفاً أو مقصوراً إنسانياً . وإذا كان المطلق لا يتدخل فى الكون ، وليس بخالق (٢) ، ولا يتحكم فى مصير الإنسان ، فإن الإنسان يتحرر من مفهوم الإله القاهر الجبار ، ويصبح مصيره فى يده ، فلا تحكم فى وجوده أو فى خلاصه ، ولا فى حريته ، وبالتالي يأتى المفهوم معبراً عن الوضع السياسى والإجتماعى الغربى فى فترة « رويس » ، وعن الروح الأمريكية فى تلك الفتره ( نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ) ، حيث يتطلع الإنسان إلى الحرية الدينية والسياسية ، وإلى التحرر من سيطرته الكنيسة والدين التقليدى . وإلى البحث عن المساواة والحرية الإجتماعية ، فمفهوم الله كما جاء عند « رويس » يقضى على التصور الهرمى للمجتمع أو للعالم ، ويؤكد تلاشى الفروق بين الأفراد وعلى حريتهم .

(١) اتين جلسون : روح الفلسفة المسيحية فىالعصر الوسيط ص ١٢٨

J.Royce : The Religious aspect of Philosophy P. 436

(٢)

ويأتي مفهوم « المطلق » عند « رويس » أقرب لمفهوم المجتمع ، بالرغم من أنه يشير إليه بأنه فرد الأفراد ، ومثلما يضم المجتمع مجموعات مختلفة ومتنوعة من الأفراد وأعمالهم ، كذلك تأتي صفات الله لتقدم رموزاً ، تعبر عن تلك المجموعات عن هؤلاء الأفراد . فالمفكر الشامل رمز للفلاسفة ، والتجربة المطلقة للعلماء ، والخير المطلق لرجال القضاء ، وروح المطلق لرجال الدين ، ومفسر العالم رمز للأفراد وتأويلاتهم ، والكادح المعاني رمز للعمال والمكافحين فإن كان الله واحداً ، فإنه ليس جوهرأً مستقلاً عن العالم أو قائماً بذاته ، وليس مفهوماً أجوف ، أو الواحد الأعم ، بل مجتمع في واحد . من الواضح أن « رويس » قد صبغ مفهوم الله صبغه إجتماعية، جعلت المفهوم مختلفاً عن التصورات أو المفاهيم الشائعة عن الله حقيقة أنه أبقى على صفة الوجدانية ، ولكنها وحدانية إجتماعية تظهر من خلال المجموع أبقى على صفة الخيرية ، ولكنها خيرية حيه تصارع الشر في باطنها . قال بأنه العالم بكل شيء<sup>(١)</sup> . ولكنه ليس علماً مرجعياً أو كتاباً للحقيقة ، وإنما معرفة تحوي في داخلها الصراع مع الأخطاء وحيه مجريه ، تعترف بالخطأ . إن المطلق عند « رويس » ليس فرداً أجوفاً ، وإنما مجتمع يحوي الكل ويعبر عن نفسه فيه . والحقيقة أن هذا التصور الإجتماعي لله يتسق مع رفع « رويس » لقيمة كل ما هو إجتماعي بصوره عامة . بل لقد قرر « رويس » إن العالم الإجتماعي واقعي ، وهو الواقع الوحيد وهو المطلق<sup>(٢)</sup> . إلا أن ذلك لا يعني أنه يوحد بين مفهوم « المجتمع المحبوب » ومفهوم « المطلق » ، لأن المطلق لا يتكون من الأفراد ، وإنما يعبر عن نفسه فيهم ، وإذا كان الروح الإلهي يعبر عن نفسه في صورته مجتمع ، فلا يعني انه يتكون من الحياة الاجتماعية ذاتها<sup>(٣)</sup> .

كذلك يأتي مفهوم المطلق عند « رويس » أقرب لمفهوم الإنسان المثالي ، أو الإنسان الكامل . والمفهوم الإنساني لله ظهر في بداية الحضارات حيث يتصور الإنسان البدائي الله

j.Royce : The conception of god , p, 8 (١)

J.Royce : The Problem of Christianity , p.II p.294 (٢)

Kalkins : The Foundation in Royce Philosophy for Christian theism, the American Philosophy Association , Dec,1915 p.383 (٣)

مثله . ويقوم هذا المفهوم الإنساني لله على التشبيه أو المماثلة ، فما يحدث للإنسان يحدث لله وما يحدث في العقل الإنساني ، يحدث في العقل المطلق ، والله مثل الإنسان له عقل وخبرة وإرادة . وربما إستمد « رويس » هذا التصور من الحضارات القديمة ، أو ما يعرف « بتشخيص الطبيعة » أو قال به مساييره التيارات الفلسفية المعاصرة له والتي كانت تعلى من قيمة الإنسان ، أو إستمدته من التصور الديني ، قاله خلق آدم على صورته (١) . أو من التفسيرات اللاهوتية المسيحية التي تكسب المسيح صفات إلهية . فالحقيقة أنه بصرف النظر عن المصدر الذي ترك أثره على « رويس » فإن المماثلة بين الإنسان والله تؤدي إلى إلغاء الفواصل بين الله والإنسان ، وترفع من شأن الإنسان ، وتعلو قيمة ، وكأنها تخاطب الإنسان إذا كان الله قد خلقك على صورته ، فإنه أيضا على صورتك أنت أيها الإنسان .

من الواضح أن « رويس » قد أطلق على الله عدة أوصاف ليس من بينها وصفه بأنه « خالق » ، قاله ليس بخالق للعالم ، وإنما هو روح العالم (٢) . ويظهر هنا تساؤل ضروري لماذا لم يقل « رويس » بأن الله خالق العالم ؟ الواقع أنه يمكن تقديم عدة إجابات لهذا التساؤل « فرويس » فيلسوف مثالي ، وغالبا ما تشكل مسأله الصلة بين الفكر والواقع مشكلة بالنسبة للمثاليين . فكيف يتصل ما هو فكري ، مع ما هو مادة صلبة محسوسة . من جهة أخرى كان « رويس » واعيا للمسائل المنطقية والإشكاليات المترتبة على مسألة خلق العالم من العدم ، والتي كانت تواجه الديانة المسيحية . وربما لجأ « رويس » إلى رفض القول بالإله الخالق ، وقال بروح العالم تأكيدا للروح العلمية السائدة في عصره والمتمثلة في تعميق نظرية داروين عن التطور ، وتطبيقها في مجالات إنسانية جديدة ، فلا تتعارض المثالية بصوره عامه مع العلم ، فإن كان العلم تجريبيا ، أو تمثل الخبرة أو التجربه محوره ، فالمطلق هوالتجربه المطلقه ، وإن كان العلم قد بدأ يتخلى عن فكرة السببية كمبدأ عام لتفسير الأشياء ، فكذلك الفلسفة ، فالمطلق ليس سببا للعالم أو صانعه . ومن جهة أخرى ربما قد قصد « رويس » تحقيق التوافق بين العلم وقضاياها ونتائجها والدين وعقائده الثابتة ، بصوره غير مباشرة أو عن طريق الفلسفة ومن خلالها . فطالما أن الفلسفة روحها دينية ، فإن تصالحها مع العلم ، يعد تصالحاً مع الدين ، ويصبح الدين روح العلم مثلما كان روح الفلسفة ، فيحوى العلم في باطنه و يؤكد مسانئته وقبوله ، ويمده بالروح ويتناقض العلم

(١) سفر التكوين : ١ : ٢٦ : ٧

J.Royce : The spirit of Modern Philosophy, pp. 360-370

(٢)

بدونه فالمطلق جوهر الروح العلمية ، والضروره المنطقية الكامنة وراء كل قضايا العلم . كذلك من الواضح أن القول بروح العالم ، يتسق مع التصور المسيحي لعلاقة الله بالعالم خاصة إذا قصد من كلمة الروح أنها تمد كل شيء بالحياة ، وبالتالي تصبح تفسيراً للمقصود بالخلق (١) . ويعيده عن الإشكالات التي تظهر نتيجة القول بالخلق من العدم ، وتتسق مع التفسيرات القائلة بقديم العالم . وبذلك تصبح الفلسفة تعقيلاً للإيمان المسيحي . من جهة أخرى يلاحظ أن القول بروح العالم ، يتسق مع الأديان القديمة السابقة على المسيحية ، وبذلك تعد محاولة لرد الحضاره الغربيه إلى جذورها ، ويصبح مفهوم « روح العالم » مفهوماً يحقق التوافق بين الفلسفة والدين والعلم .

ومن الواضح أن « رويس » قد إستند في جدله لإثبات المطلق على فكرتين ، الأولى وجود الجهل والإعتراف به ، دليل على وجود العارف أو الحكمة المطلقة ، والثانيه إعتقاد العلم على الخبرة أو التجربة غير المباشرة ، وكمال النسق الفكرى دليل على وجود خبره المطلقة . وحكم العلم حكم بوجود الخبرة المطلقة ، أو أحكام العلم لا تتسق ولا قيمة لها بدون وجودها (٢) . السؤال الذى يفرض نفسه الآن ، من الذى يحكم بوجود الجهل ، أو بوجود الخبرة غيرالمباشرة للعلم ، ويخطأ خبرة ما ، بمقارنتها بخبرة أخرى ، والحكم بزيف إحداها ؟ الواضح أن الحاكم هو الذات الإنسانية (٣) . فالجهل إثبات لوجود الحقيقة المطلقة ، والحكم بزيف هذه أوتلك القضية ، يؤكد أن الخبرة المطلقة موجوده . لذلك من الواضح أن « رويس » يعتمد على « الذات الإنسانية » لإثبات وجود المطلق .وكأنه يستخدم نفس المنهج الديكارتى فى القضية المشهوره أنا أفكر فانا موجود والإنتقال من إثبات وجود الذات إلى إثبات وجود الله . ولقد كان من الممكن قبول موقف « رويس » لو أن مثالته ، كانت مثالته ذاتيه ، أو تقوم على الذات ، إلا أنه دائماً ما يصف مثالته بأنها مثالته مطلقه وتختلف عن المثالية الذاتيه (٤) . وبذلك يتضح أن مذهبه يقوم على الأنانه أو المذهب الذاتى الذى يرد كل شيء إلى الذات (٥) .

(١) سفر التكوين : ١ : ١ « فى البدء خلق الله السموات والارض »

J.Royce : The Conception of God , p101 (٢)

J.Royce : And Others : The conception of God , p, 101 (٣)

J.Royce : The religious Aspect of Philosophy, p, 482 (٤)

J.Royce and Others : The Conception of god p. 100 (٥)

وإثن كان « رويس » قد عارض القائلين بالحقيقة اللامعروفة . أو المذاهب التي توقفت عن الحكم على الواقع ، أو ما يسمى باللاأدرية ، فالحقيقة أنه عاد وإعترف بالجهل والأخطاء ، الأمر الذي يؤكد وجهة نظر اللاأدرية ، ويثبت صحة حججهم . حقيقة أنه إنتهى من الجدل معهم ، بوجود حقيقة مطلقة ، ولكن ألا يؤكد ذلك صحة أفكارهم ، وإن كانوا قد توقفوا عن الحكم ؟ . لقد رفض « رويس » إعتبار الله سرأً غامضاً ، أو لا معروفاً ولكن فى عرضه لمفهوم الله ، لم يضيف مزيداً من التفصيل على فكرة الله ، فهو روح العالم والفرد والإرادة الكلية والفكر الشامل ، وكلها جاءت أقرب إلى أسماء الله ، بل وتزيد من غموض التصور أو المفهوم ، وكأن « رويس » قد تصور أن غموض المفهوم يكسبه قدسيه ، وبذلك تصبح الفلسفة الدينية لاهوتاً جديداً . والحقيقة أن مفهوم الله كما عرضه « رويس » ، يحتمل عده تفسيرات ، وأن كان قد أشار إلى بعضها في معرض ربودة على الاعتراضات التي قد توقع قيامها (١) . فالواقع إذا كان الفرد يعرف المطلق من مراقبة الوعى الذاتى والعمليات الفكرية فى الشعور ، خاصة عندما يبحث عن الصواب ويتقلب على الخطأ ، كما يكتشفه أيضا من العمليات التي تحقق إنتصار الإرادة الخيرة فى باطنه ، وأن بمجرد إكتشافه ، يشعر الفرد بالراحة والسلوى (٢) . فإن مفهوم الله يقترب من مفهوم الضمير الأخلاقى . فإله فى الداخل وليس فى الخارج ، ولا جزء أو إثابة من الخارج ، بل من داخل الفرد . وإذا كان الإنسان يعرف الله من الإحساس بالنقص والجهل ، ألا يعنى ذلك شهادة على وجوده فى ضميرة أو فى باطنه ؟ ، ألا يعنى أن الله المحقق لما يسعى إليه ، وبالتالي يعتبر مرشداً له فى حياته ؟ . كذلك ألا يمكن تفسير مفهوم الله عند « رويس » بأنه أقرب لتصور الله عند أصحاب مذهب وحدة الوجود . حقيقة أن « رويس » لم يصف مذهبه صراحة بأنه يتسق مع المذاهب القائلة بوحدة الوجود (٣) ، فهناك جدل بين الذات والموضوع وليس بينهما تطابقاً كاملاً ، إلا أن المذهب يوحى بصورة عامة بوحدة الوجود ، فطالما أن المطلق يظهر فى كل وحدة ، فالمذهب يدور فى فلك مذاهب وحدة الوجود . حقيقة أن « رويس » يقصد

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy, p. 476

(١)

Ibid ., pp. 445-471

(٢)

Ibid ., p. 476

(٣)

بمفهوم « الوحدة » الوحدة الشاملة لمجموعه من الأفكار الجزئية المتنوعة ، أى الوحدة المنطقية ، إلا أنها يفهم منها أحياناً ، إنها وحدة أنطولوجية ، وبذلك يمكن تفسير مفهوم الله عند « رويس » بأنه إله المذاهب الدينية القديمة ، وكأن « رويس » قد قصد رد الحضارة الغربية إلى أصلها الشرقى المشابه للقول بوحدة الوجود .

والحقيقة يلاحظ أن مفهوم المطلق عند « رويس » ، قد جاء حاوياً لكل شيء ، وفى نفس الوقت لا شيء . « عقل » شامل عارف عالم ، ولكنه لا يفيد الإنسان بعلمه ومعرفته . « قاض » يعرف الخير والشر . ويدرك طبيعة الإنسان الدفينة ، ولكنه معطل عن الحكم ، فلا يوقع جزاء ولا يعاقب أو يثيب . « عليم » بكل شيء ، ولكن علمه خاص بنفسه وعالمه . يراقب فكره ووعية الذاتى ، ويدرك التناقضات ، والتباين بين عملياته الفكرية ، ولكنه لا يسعى للجل ، فمشكلته ، مشكلة الوعي الذاتى الإنسانى . لديه الخبرة المطلقة ، ولكنها خبرة قاصرة على نفسه لا يمد بها أحد . « روح العالم » ، ولكنه لا يتدخل فى أحداث العالم أو مصيره وكأنه روح خامدة ، أو مراقبة أكثر منها مشاركة « حلال المشاكل (١) . » مجيب التساؤلات ولكنه يجيبها لذاته . « محبة مطلقة » ولكنها محبة عقلية فكرية تمثلت فى إنتقائه لهذا العالم . « إرادة مطلقة » تعتبر عن نفسها فى الإرادات الفردية والجزئية ، ولكنها لا تتدخل ولا تفعل ، فهى إرادة معطلة . لذلك جاء المفهوم غامضاً مبهماً . وإذا كان « رويس » قد هاجم المذاهب الألدورية والشكية وأصحاب نظرية اللامعروف ، وحاول وضع تصور للمطلق وصفاته ، فالحقيقة تصور أو مفهوم الله عنده ، جاء أكثر غموضاً ، وتحول التوضيح إلى تسطيح ، وأصبح المفهوم مجرد وسيلة تحقق للفرد السلوى والراحة والعزاء الدينى . والحقيقة أن هناك عنده تفسيرات لموقف « رويس » وربما قصد « رويس » صياغة مفهوم الله بهذه الصورة، لتحقيق نوع من التوافق مع التصور السائد لله فى المسيحية من جهة ، وإله الفلاسفة من جهة أخرى ، وكان توما الأكوينى يظهر من جديد . وربما قصد « رويس » بعرضه مفهوم الله بهذه الصورة ، تحقيق أمرين ، الأول أن مجرد وجود المفهوم ، يحقق إشباعاً لرغبة الفرد الدينية ، طالما أن الظاهرة الدينية حازه ملحة . وشعور الإنسان بالعجز يدفعه للبحث عن طريق للخلاص ، فالخلاص مطلب إنسانى ضرورى (٢) . والأمر الثانى

J.Royce : The Conception of God. p. 12

(١)

J.Royce : The Sources of Religious Insight,(1912) The Trustes Lake Forst Inver  
sity , U.S 1912, p.112

(٢)

أن طالما كان التصور غامضاً ، فإن الإنسان قد يؤمن به ، ولكنه لا يتأثر به فى حياته العملية ، بمعنى أن غموض المفهوم ، يجعله لا يعير إليه التفاتاً ، ولا يوظفه فى حياته أو فى نظمه الإجتماعية ، فإله هناك سند للإنسان فى كل أعماله ، ولكنه لا يتدخل فيها .

السؤال الذى يفرض نفسه الآن ، ما الذى دفع « رويس » إلى وضع تصور لله ، ومحاولة البرهنة على وجود الله ، وإثبات أوصافه وصفاته وأسمائه ، والعودة إلى الفلسفة الحديثة وإلى بدايتها ، خاصة بعد أن بين « كانط » أن طريق البرهنة مسدود ، وأنهى « نقد العقل الخالص » ، طريق الأدلة على وجود الله ؟ . أكان ذلك عودة إلى المذاهب التقليدية الفلسفية ، بعد أن ولى عصر المذهبية ، وبذلك تصبح المحاولة مجرد محاولة فلسفية يؤكد « رويس » فيها ، قدرة المثالية على مواجهة متطلبات عصره ، أم أنه إتبع طريق البرهنة والأدلة لتقديم دين جديد ، يحقق مطالب المواطن الأمريكى ، ويشبع شعوره الدينى ، خاصة بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، ويحاول المحافظة على الوحدة ، ويحقق التصالح بين روح الفردية والأنانية والمغامرة والمكاسب الخاصة والروح الإجتماعية ووحدة المجتمع . فالملحق يتحقق فى الوحدة و البصيرة الدينية ، تتحقق بإدراك الوحدة الروحية (١) ، سواء لحياة الفرد أو لحياة مجتمعه . وبذلك يصبح « رويس » الفيلسوف المعبر عن الروح الدينية والأخلاقية للمجتمع الأمريكى ، والذى كان يعانى من التشتت فى فتره ما بعد الحرب . وإذا كان لا بد من وجود تيارين متعارضين فى كل عصر كما هو سائد فى تاريخ الفلسفة . فإن « رويس » يمكن إعتباره المعارض لوليم جيمس ، وكلاهما من نتاج المجتمع والعصر . أم أن « رويس » قد هدف من إحياء طريق البرهنة على وجود الله ، وتوضيح أوصافه ، وصفاته إلى محاولة غير مباشرة لإحياء الروح المسيحية فى صورته فلسفية ، بعد أن عانت من فقدان الثقة فى عصره بسبب الحروب وتطور العلم ، وظهور النظرية الداروينية ، وإنتشار الروح العلمية ، بل وأصبح إختفاء الدين ، لا يؤثر على نظم المجتمع الإقتصادية والسياسية .

Ibid ., p. 6

(١)

والحقيقة أن هذا التفسير الأخير ، يبدو مبرراً من الناحية المنطقية ، وفى ضوء القوانين العلمية ، فكل فعل له رد فعل ، وانتشار عدم الثقة فى الأديان ، يؤدى إلى ظهور التيارات الفكرية التى تطالب بالعودة إليها ، ومحاولة إحيائها . كذلك يجد هذا التفسير تبريره فى محاولة « رويس » نفسه فى كتابه « مشكلة المسيحية » ، إعادة تأويل المسيحية تأويلاً يجعلها ديناً مقنعاً لإنسان القرن العشرين . والحقيقة أن زمن البراهين قد إنتهى ، والدين الحق هو القادر على الصمود والإستمرارية نون أدلة وبراهين ، سواء كان ديناً إنسانياً أم إلهياً ، وسواء كان الله فى الداخل أو الخارج ، فى الذات أو فى الكون ، خالقاً للكون ، أم كان الكون معه (١) ، فلا بد أن يتجسد فى سلوك الإنسان ، وفى ظروف العصر . حقيقة أن كل سلوك ينبع من إعتقاد معين وتصور معين لله ، إلا أن المحك النهائى لقيمة هذا الإعتقاد أو التصور ، يتمثل فى العمل والإرتقاء بمستوى البشرية ، لذلك لا بد أن يتجسد التصور فى ظروف العصر ومشكلاته (٢) ، ولا يتم الاكتفاء بمجرد ذكر أوصاف أو أسماء أو صفات . فإن كان عصر تشتت فهو الوحدة ، وإن كان عصر تخلف فهو العلم ، وإن كان عصر إنهيار فهو التقدم ، إن الله موجود ، ولا تكمن المشكله فى أدلة وجوده أو صفاته أو أوصافه ، وإنما فى تصور الفرد له ، وتصور علاقته معه ، ومتطلبات العصر وظروفه .

(١) د . حسن حنفي : دراسات اسلامية ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨١ ص ٥ - ١٢

(٢) المرجع السابق ٢٥